السورة الخامسة

المَسَد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾

هذه هي السورة الرابعة في الترتيب التراجعيّ لسور القرآن الكريم، وسنجد أنّ في كلماتها، التي لا تزيد عن ٢٣ كلمة، ما لا يقلّ عن ٣١ موقعاً إعجازيّاً جديداً فاجأ بها القرآن لأوّل مرّة سَدَنة اللغة العربيّة، وأضافها إلى قاموسها اللغويّ والنحويّ والبيانيّ والفكريّ. وستتوزّع دراستها على الجوانب الخمسة نفسها التي درسنا من خلالها السوَر السابقة.

وتتجسّد الهُويّة اللغويّة للسورة بألفاظها وتعبيراتها التي استقلّت بها دون باقي السوَر، كاللفظين (تَبّ، مَسَد) والتعبيرات (تبّت يدا، ناراً ذاتَ لهَب، حَمّالة الحطب، في جِيدِها حبلٌ، حبلٌ من مَسَد) وكذلك الجزئيّة النحويّة الجديدة الخاصّة، وهي الوضع الإعرابيّ للّفظ (حمّالةَ).

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- تبّت:

لفظٌ/ تعبيرٌ محضُ قرآنيّ، فالشعر الجاهليّ يخلو تماماً من هذا التعبير "الفعليّ"، رغم كلّ ما في شعرهم من هجاءٍ وشتائم لم يوفّر منها الشعراء لخصومهم شيئاً.

صحيحٌ أنّنا نجد لدى عرب الجاهليّة المصدر الاسميّ لهذا الفعل وهو (تبّاً) متعدّياً لما بعده دائماً باللام، ولكنّنا لا نجد الفعل نفسَه. وقد جاء التعبير الجاهليّ "الاسميّ" على لسان أبي لهبٍ حين قال لرسول الله ﷺ: "تبًّا لك، إنّما جمعتَنا لهذا؟!" فكانت كلمته سبباً لنزول سورة (المسَد).

ونعثر على المصدر في الشعر الجاهليّ مرةً واحدةً، متلوّاً باللام طبعاً، عند زهير بن جناب الكلبيّ (ت ٦٤ ق.هـ) في قوله:

تبّاً لتَغلِبَ أنْ تُساقَ نساؤهمْ ... سَوقَ الإماءِ إلى المواسمِ عُطَّلا

ثمّ لا نجده عند الشعراء بعد الإسلام إلاّ في هذه الصيغة الجاهليّة، رغم تعدّد وروده لدى كثيرٍ منهم، كما في الأبيات:

تبّــاً لـدارٍ لا يدومُ نعيمُــها ... ومَشــيدُها عمّا قليلٍ يَخــرَبُ

عليّ بن أبي طالب (ت ٤٠هـ)

ألم تغضبوا، تبّاً لكم، إذْ سَطَتْ بكمْ ... مجوسُ القُرى في داركمْ ويهودُها

ابن الزبير الأسَديّ (ت ٧٥هـ)

تبّاً لفخرِكَ بالضــلالِ ولم يزلْ ... ثَوبَــا أبيــكَ مُدَنَّسَيْــنِ بعــارِ

جرير (ت ١١٠هـ)

وهكذا يبقى الاستخدام القرآنيّ متفرّداً:

أوّلاً: بفعليّته،

وثانياً: بإسناده إلى اليدين،

وثالثاً: بتعديته بنفسه، من غير الاستعانة بحرف الجرّ (اللام) كما في كلّ الأمثلة السابقة.

ولا يرِد اللفظ أبداً على لسان الرسول ﷺ.

٢- وتبّ:

يتَميّز هذا اللفظ أيضاً بفعليّته، وكذلك بتعديته مباشرةً إلى فاعله، وهو هنا الضمير المستتر (هو)، من غير الاستعانة باللام.

وكلا اللفظين لا يتكرّر في غير هذه السورة، فهما من أبرز خصوصيّاتها.

٣- كَسَب:

لأوّل مرّةٍ في التاريخ اللغويّ لهذا الفعل؛ يأخذ في القرآن شكلاً لا يتعدّى فيه إلى مفعولٍ به أو غيره. فعلى الرغم من أنّنا لا نعثر في الشعر الجاهليّ إلاّ على مصدره، وفي بيتٍ واحدٍ لقيس بن الحدادیّة (ت ١٠ ق.ه) فإنّ هذا المصدر الوحيد يتعدّى في البيت أيضاً، حتى إن جاءت التعدية في شكل مضافٍ ومضافٍ إليه:

فليس كمَنْ يغزو الصديقَ بنَوكِهِ وهِمّتُهُ في الغزوِ كَسْبُ المُراودِ

فأضاف الكسب إلى المُراود. ويستمرّ الفعل ومشتقّاتُه عند الشعراء بعد الإسلام على سيرته قبل الإسلام، متعدّياً باستمرار إلى مفعولٍ به، أو إلى ما هو في مقام المفعول به، كما في الأبيات:

نَجيبٌ يُجيبُ المستضافَ إذا دعا ويسمو إلى كسْبِ العلاءِ إذا يسمو

مَعن المُزنيّ (ت ٦٤هـ)

وللخيرِ كسّابٌ وللمجدِ رافــعٌ وللحمدِ أعــوانٌ وللخيلِ مُعْتَـلِ

عمر بن أبي ربيعة (ت ٩٣هـ)

لأكسبَ مالاً أو أؤولَ إلــى غنىً مــن اللهِ يكفيني عُـداةَ الخلائفِ

الطِرِمّاح الطائيّ (ت ١٢٥هـ)

فتعدّى إلى (العلاء) في البيت الأوّل، وإلى (الخير) في الثاني، وإلى (مالاً) في الثالث.

ورغم أنّ الفعل يرِد في القرآن الكريم، مع مشتقّاته، ٦١ مرّة، فإنّه لم يتعدّ إلا في ثمانٍ منها، ويحافظ في بقيّة الحالات على وضعه القرآنيّ الجديد، كما في الآيات:

- ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة: ١٤١]
- ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ [المائدة: ٣٨]
- ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]
- ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطفّفين: ١٤]

والأغرب من ذلك أنّه، على عكس استعماله في الشعر الجاهليّ واستعمالاتنا له حتى اليوم، استُخدم في أكثر الآيات الكريمة بالمعنى السلبيّ دون الإيجابيّ، فهو يأخذ فيها غالباً معنى كسب السيّئات والآثام بدلاً من الأجر والثّواب:

- ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٨١]
- ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا ﴾ [يونس: ٢٧]
- ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا ﴾ [النساء: ١١٢]
- ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ [الكهف: ٥٨]

أمّا في الحديث الشريف فهو، كحاله في لغتنا العاديّة، وخلافاً لاستخدامه القرآنيّ، متعدٍّ على الأغلب، ثمّ إنّه يُستخدم مع كلا السيّئات والحسنات بالدرجة نفسها تقريباً، كقوله ﷺ:

- أيُّما رجلٍ كسَبَ مالاً من حلالٍ، فأطعمَ نفسَه أو كساها، فمَن دونَه مِن خَلْقِ الله، فإنّ له بها زكاةً[1]

وقليلاً ما نعثر في الحديث على الشكل القرآنيّ للفعل؛ أي بحذف ما تعدّى إليه. ومن هذه الحالات القليلة قوله ﷺ:

- إذا تصدّقتِ المرأةُ من بيتِ زوجِها كان لها به أجرٌ، وللزوجِ مثلُ ذلك، وللخازنِ مثلُ ذلك، ولا يُنقِصُ كلُّ واحدٍ منهم مِن أجرِ صاحِبِه شيئاً: له بما كَسَب، ولها بما أنفقتْ[2]

٤- سيَصلَى:

الفعل (صَلَى يَصْلي) متداوَلٌ في الشعر الجاهليّ، ولكنْ متعدّياً دائماً بحرف الجرّ (الباء) كما في هذه الأبيات:

إذا ما البخيلُ الخِبُّ أخمدَ نارَهُ أقولُ لمن يَصلَى بناريَ: أوقِدوا

حاتم الطائيّ (ت ٤٦ ق.ه)

ويكاد يَنزِعُ جِلدَ مَن يَصلَى بهِ بلوافحٍ مثلِ السعيرِ المُوقَدِ

النابغة الذبيانيّ (ت ١٨ ق.ه)

وإذا يُلاقي بَجْدةً معلومةً يَصلَى الكُماةُ بحرِّها لم يَبلُدِ

زهير بن أبي سُلمى (ت ١٣ ق.ه)

---

(١) البستي، محمد بن حبان. **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط. ٢، ١٤١٤ه، ١٩٩٣م، ج١٠، ص٤٨، حديث رقم ٤٢٣٦.

(٢) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٨، حديث رقم: ٦٧١.

أمّا في القرآن الكريم فيتعدّى بنفسه دائماً من غير الاستعانة بالباء، رغم وروده فيه بمشتقّاته المختلفة ٢٥ مرّة، بل إنه، خلافاً للتاريخ اللغويّ لهذا الفعل، يتعدّى في القرآن عدّة مرّاتٍ إلى مفعولين اثنين بدلاً من واحد، فكأنّه يأتي بمعنى (نُذيق) أو (نَجْزي):

- ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]

- ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ ﴾ [النساء: ٣٠]

- ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدّثّر: ٢٦]

لاحظ كيف خلت الآيات الثلاث من حرف الباء وتعدّى الفعل فيها جميعاً إلى مفعولين: الأوّل هو الضمير (الهاء) المتصل به، والثاني هو (جهنّم) في الآية الأولى، و(ناراً) في الثانية، و(سقَر) في الثالثة.

٥- امرأتُه:

من أهمّ ما يختلف به القرآنُ الكريم عن الحديث الشريف في استخدام الألفاظ، اختلافاً لافتاً للنظر حقاً، أنّ القرآن لا يستخدم إلاّ أحد اللفظين (زوج) أو (امرأة) للمؤنّث -كما هو في هذه السورة- على عكس الحديث الشريف الذي يستخدم بدلاً منهما اللفظ (زوجة) على الأغلب فيتردّد فيه هذا اللفظ عشرات المرّات، من مثل قوله ﷺ:

- ..وزوجةٌ مؤمنةٌ تعِينُه على إيمانِه[١]

- ..إنّي لأعلَمُ أنّها زوجتُه في الدنيا والآخرة[٢]

---

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٧٧، حديث رقم: ٣٠٩٤.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٣، ص١٣٧٥، حديث رقم: ٣٥٦١.

- لا تؤذي امرأةٌ زوجَها في الدنيا إلاّ قالت زوجتُه من الحُورِ العِين .. [1]
- وإنّ لِزوجتِكَ عليكَ حقاً .. [2]
- فيدخلُ عليه زوجتاه من الحُورِ العِين .. [3]

ولا أثر للفظ (زوجة) أو (زوجات) في القرآن الكريم، وإنما نجد اللفظ (أزواج) للإناث ٣٣ مرّة، واللفظ (نساء) بالمعنى نفسه ٣٣ مرة أيضاً. أمّا الحديث الشريف فيستخدم الجَمعَين كليهما (أزواج وزوجات) على السواء، ولكن قلّ أن يستخدم اللفظ القرآنيّ المفرد (زوج) للمؤنّث؛ إذ يحلّ محلّه فيه اللفظُ المؤنّث (زوجة).

أمّا في الشعر الجاهليّ فلا نعثر إلاّ على اللفظ (زوج) للمؤنّث، كقول السُلَيك بن السُلَكة (ت ١٧ ق.هـ):

... ... ورُبَّ زوجٍ قد نكحتُ عُطبولِ

ثمّ يُتداول اللفظان كلاهما عند الشعراء بعد الإسلام، فنجد اللفظ (زوجة) عند العديد منهم -خلافاً لما يذهب إليه بعض لغويّينا المحْدَثين- ولنا في الأحاديث الشّريفة، وكذلك في الأبيات التالية، خير شاهدٍ على صحّة استعمال اللفظ:

فإنّ امرأً يسعى يُخبِّبُ زوجتي كَساعٍ إلى أُسْدِ الشَرى يستبيلُها
الفرزدق (ت ١١٠هـ)

أذو زوجةٍ بالمصرِ أم ذو خصومةٍ أراكَ لها بالبصرةِ العامَ ثاويا
ذو الرمّة (ت١١٧هـ)

وأراهُ عمّمني وعمَّم زوجتي واختصّني مِن دونها بلِثامِ
ابن الروميّ (ت ٢٨٣هـ)

---

(١) القزويني، **سنن ابن ماجه**، مرجع سابق، ج١، ص٦٤٩، حديث رقم: ٢٠١٤.

(٢) النسائي، **المجتبى من السنن**، مرجع سابق، ج٤، ص٢١٠، حديث رقم: ٢٣٩١.

(٣) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص١٧٥، حديث رقم: ١٨٨.

٦ – حمَّالة:

من أشهر الاتّجاهات في تفسير هذا اللفظ، بين التفسيرات الكثيرة التي اقتُرحت له، أنّ امرأة أبي لهب ستحمل الحطب في جهنّم، جزاء ما كانت تحمله من أقذارٍ في الدنيا لتضعها في طريق النبيّ ﷺ.

وهكذا تكون مبالغة اسم الفاعل –وزن (فعّالة)– قد حلّت لأوّل مرّة، وربّما لآخر مرّة، محلّ الفعل المضارع الذي يقتصر على الزمن المستقبل؛ أي: وامرأته ستحمل الحطب، ولا أعلم حالةً أخرى شبيهةً لها في القرآن، ولا في الحديث، ولا في الشعر الجاهليّ، ولا في تراثنا القديم أو المعاصر حتّى اليوم. هل يمكن أن نقول مثلاً:

المجرمُ شَغّالَ الأشغالِ الشاقّة

ونحن نعني أنّ المجرم سيُحكم عليه بالأشغال الشاقّة؟

٧ – مَسَد:

اختلف المفسّرون اختلافاً غير عاديٍّ حول معنى هذا اللفظ، ولكنّ معظمهم اتّجه إلى أنّه الشوك، وهذا المعنى بعيدٌ عن معنى أيٍّ من الحالات القليلة التي ورد بها اللفظ في الشعر الجاهليّ، لأنه يعني هناك مجرّد (الحَبْل) كما نتبيّن من هذه الأمثلة:

كأنّ سَراتَهُ والخَيلُ شُعْثٌ ... غَداةَ وجِيفِها مَسَدٌ مُغارُ

بِشر بن أبي خازم (ت ٢٢ ق.هـ)

إذا جَمحتْ نساؤكمُ إليهِ ... أشَظَّ كأنّهُ مَسَدٌ مُغارُ

زهير بن أبي سُلمى (ت ١٣ ق.هـ)

مقذوفةٌ بدخيسِ النَحْضِ بازِلُها ... له صَريفٌ صريفَ القَعوِ بالمَسَدِ

النابغة الذبيانيّ (ت ١٨ ق.هـ)

و(المُغار) هو المفتول، و (القعو) هو البكرة التي يلتفّ عليها حبل البئر فتُصدر حركتُه صوتاً خاصاً (صريفاً). وواضحٌ هنا أنّ معنى (المسَد) في الأبيات الثلاثة هو الحبل.

ولعلّ بيت الأحوص الأنصاري (ت ١٠٥هـ) يوضّح لنا حقيقة الفرق بين المعنى القرآنيّ والمعنى الجاهليّ؛ إذ يفرّق الشّاعر بين الحبل العاديّ وحبل المَسَد في جهنّم:

كلُّ الحبالِ حبالِ الناسِ مِن شَعَرٍ وحبلُها وسْطَ أهلِ النارِ مِن مَسَدِ

ورغم أنّ المفسّرين واللغويين لم يتّفقوا على معنىً نهائيٍّ لـ (المَسَد)، فإنّه ظلّ مرتبطاً في أذهاننا بامرأة أبي لهبٍ وعذابها الشديد في النار، فيظل معنى اللفظ، من ثمّ، افتراضيّاً موحياً بشدّة العقوبة وقسوتها حتّى إن لم نكن متأكّدين من طبيعة هذه العقوبة، ومَثَله في هذا كمَثل التعبير القرآنيّ ﴿ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ وقد شبّه الله تعالى به ثمار شجرة الزقّوم التي في جهنّم، رغم أنّ أحداً منّا لم يعرف الشياطين ولا رؤوس الشياطين ولا شجرة الزقّوم كيف تكون.

إنّه إذن، بهذا المعنى، لفظٌ قرآنيّ، وهو، إلى ذلك، يختصّ بهذه السورة وحدها، فلا وجود له في باقي سورِ القرآن الكريم، ولا وجود له مطلقاً في الحديث الشريف.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- وتبّ:

إضافةً إلى ما عرفناه من أسرار الاستعمال القرآنيّ لهذا الفعل، سنجد أنّ في استعماله سرّاً جديداً آخر لم يُسبَق القرآن إليه، وهو أنّه فعلٌ فاعله كلٌّ (وهو أبو لهب)، عُطِف على فعلٍ فاعلُه جزءٌ من هذا الكلّ (وهو يدا أبي لهب)، والتقدير: تبّت يدا أبي لهبٍ وتبّ أبو لهبٍ كلُّه.

إنها خصوصيّةٌ لطيفةٌ لم أجدها في أيّ مكانٍ آخر، لا في القرآن ولا في غيرِه. وهي تختلف مثلاً عن العبارتين النبويّتين: "نجا ونجَوا" و "هلَك وهلكوا" وذلك لانفصال فاعل الفعل الأول فيهما عن فاعل الفعل الثاني، فالنجاة والهلاك هما للشخص في الفعل الأول من كلتا العبارتين النبويّتين، ولرفاقه في الفعل الثاني، دون أيّ تداخلٍ بين الطرفين.

٢- ما أغنَى:

هناك احتمالان على الأقلّ في معنى هذه العبارة: فإمّا أن تكون استفهاميّةً، فالتقدير: ماذا سيغني عنه أو يفيده مالُه؟ وإمّا أن تكون نافيةً، فهي إخبارٌ بالنفي، والتقدير: لن ينفعه مالُه. وفي الحالين تشير العبارة إلى المستقبل (لن يُغنيه، أو: ماذا سيغنيه) رغم أنها جاءت في صيغة الماضي، وهذا من خصوصيّات القرآن الكريم وظواهره اللغويّة المميَّزة: التعبير عن المستقبل في صيغة الزمن الماضي.

٣- سيَصلَى:

لو استجابت هذه الآيات لتوقّعاتنا اللغويّة البشريّة عند استعمال الفعل هنا لجاءت الصياغة هكذا:

ما أغنَى عنه مالُه، فسيصلى بالنار، أو:

فسوف نَصليه بنار جهنّم، أو:

فمآلُه إلى النار.

هل لاحظتم أنّنا لم نستغنِ عن حرف (الفاء) في أيٍّ من العبارات الثلاث التي اخترناها للتعبير عن معنى الآية؟

فعدم انتفاعه بما يملكه أو يربحه من مال؛ من شأنه أن يودي به إلى عذاب جهنّم، وكان بدهيّاً إذن أن نستعين بالفاء، أو بأيّة أداةٍ تفسيريّةٍ أخرى، في مطلع جملةٍ تفسّر جملةً سبقتها. ومثل ذلك قولنا:

لن يفيدك الهرب فسوف تقع في أيدينا بالنهاية، أو قولُنا:

لن تستفيد من الدراسة اليوم، فقد فات الأوان.

وفقدان الفاء، التي من شأنها أن تربط النتيجة هنا بالمقدّمة، أمرٌ لم تألفه الجملة العربيّة قبل القرآن، ولم تتعوّده بعده، ولم تألفه جملة الحديث الشريف أيضاً، وما تزال لغتنا العربيّة المتداوَلة بعيدةً حتّى اليوم عن هذا التقليد اللغويّ القرآنيّ.

٤- ناراً ذاتَ لهَب:

هذا وصفٌ قرآنيٌّ فريدٌ للنار لم يُستخدم قبل القرآن، وأكاد أقول: ولا بعده أيضاً، وإنما نقول: نارٌ متأجّجة، ولاهبة، ومتلهّبة، وملتهبة، وشديدة، وحامية، ومتوقّدة، ومُحرقة، أو ربّما، في أقرب الطرق إلى التعبير القرآنيّ، لها لهبٌ، كما قال جرير مرّةً (ت ١١٠هـ) محاولاً الاتّكاء على الاستعمال القرآنيّ:

وأوقدتُ ناري بالحديدِ فأصبحتْ لها لهبٌ يَصلي به اللهُ مَن يَصلي

وقد اقتصر الوصف ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ على القرآن الكريم، بل على هذا الموضع وحده في سورة (المسد) دون باقي السوَر.

ولا نعثر عليه في الحديث الشريف، ولا في الشعر العربيّ حتّى قرونٍ متأخّرة، ونصادفه أوّل مرّةٍ عند التلمساني المنداسي (ت ١٠٨٨هـ) حيث يقول:

لو رأيتمْ في الهوى ذاتَ لهْبٍ طَرحَتْ في الفؤادِ منه جِمارا

٥- حمّالةَ:

موقع هذا اللفظ وحركته من أغرب أوضاع الخبر والحال في القرآن. وللحال في الكتاب الكريم شؤونٌ عجيبةٌ لا نجدها في غيره، وليس هذا موضعَ تفصيلها، ولكنّ اللفظ (حمّالة) نموذجٌ من هذه الأحوال غير العاديّة لا مناص من تحليله.

فنصبُه لا يترك أمامنا خِياراً في إعرابه: إنّه حال، رغم أنّنا ما نزال نترقّب اكتمال الجملة ومجيء خبر المبتدأ الذي ابتدأت به الآية (امرأتُه).

وتبعاً لقواعد النحويّين، لا مسوّغ لمجيء الحال في أيّة جملةٍ –والحال هي من كماليّات الكلام– ما لم يأتِ أوّلاً خبرُ المبتدأ –والخبر هو من أساسيّات الكلام–.

والحلّ إذن –كما اقترحه النحويّون للخروج من هذا المأزق الإعرابيّ الذي وضعتهم في مواجهته لغةُ القرآن– هو أن أوجدوا لها، ولأمثالها، إعراباً خاصّاً فقالوا: منصوبٌ على الشتيمة أو الذمّ!! وهو وضعٌ نحويٌّ لا نجده في الشعر الجاهليّ، ولا أعرفهم ذهبوا إليه في غير القرآن.

وربّما وجدوا حلاً آخر للمعضلة بأن عدّوا اللفظ خبراً وحالاً في الوقت نفسه، فقالوا إنها حالٌ سدّت مسدّ الخبر. وهو حلٌّ ذكيٌّ للتوفيق بين قواعد النحويّين وبلاغة القرآن وإعجازه التجديديّ الذي كثيراً ما يحلّق فوق الحدود الضيّقة لقواعد النحو، فيوسّع آفاقها، ويجعلها أكثر مرونةً واستجابةً للغته الجديدة.

وفي أيٍّ من الخيارين نستطيع أن نتلمّس بوضوح جانباً من جوانب الخصوصيّة اللغويّة المدهشة للقرآن الكريم.

٦– حمّالةَ الحطب:

لم يقُل أحدٌ قبل القرآن الكريم ولا بعده ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ هكذا مبالغةً لاسم الفاعل (حامل) ومضافةً إلى الحطب. قد نقول في هذا المعنى:

- حاملة الحطب، أو:
- التي تحمل الحطب، أو:
- ستحمل الحطب

أو غير ذلك، ولكن ليس ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾. فإذا أضفنا إلى ذلك

خصوصيّتها الأخرى بإطلاقها على الزمن المستقبل –على حين أنّ من شأن هذه الصيغة أن تُطلق على الزمن الحاضر، ولهذا سمّوها حالاً– عرفنا مدى جدّة هذا التعبير، ووقعه الغريب على أذن العربيّ الأوّل.

٧– في جِيدِها:

لو أردنا أن نعبّر بلغتنا العاديّة عن معنى هذه الآية الأخيرة من السورة، لشعرنا بحاجةٍ إلى إضافة شيءٍ في مطلعها، مثل (سيكون)، لأنّ الواقعة تشير إلى زمنٍ آتٍ، وهو الآخرة، حين يلتفّ الحبل على عنقها في جهنّم.

وقد نضيف بدلاً من ذلك (واو الحاليّة) إذا قدّرنا أنّ هذا يجري في الزمن الحاضر، وليس المستقبل، لأن التفاف الحبل حول عنقها سيتمّ في وقتٍ يرافق ويزامن حملها للحطب وليس بعده؛ أي: تحمل الحطب وفي جيدها حبلٌ..

وربّما يكون الحديث هو عمّا تفعله في الدنيا، وليس في الآخرة، كما ذهب بعض المفسّرين، لأنّها اعتادت أن تلفّ الحبل على عنقها وهي تحتطب (وإن كانت هي نفسها تنفي ذلك في حديثٍ ورد في المستدرك على الصحيحين).

فإن كان إعرابُ (حمَّالة) حالاً فستكون جملة ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ حالاً لتلك الحال، لأنّها: تحمل الحطب في الحال التي عُلِّق بها في جيدِها حبلٌ من مسد، وسنكون بهذا أيضاً في حاجةٍ إلى واو الحال أو إلى لفظٍ آخر مثل (وقد) تِبعاً لتقاليدنا التعبيريّة. أمّا لغة القرآن الكريم فكثيراً ما تستغني عنهما –أو عن اللفظ (سيكون) في التأويل الأوّل– كما وقع هنا حقاً ويقع في آياتٍ قرآنيّةٍ عديدة.

٨– في جِيدِها حبلٌ:

تظهر المفارقة هنا في أنّ العرب قد درجوا على استعمال لفظ (الجِيد) في الغزل أو الاستحسان أو الإطراء أو الفخر، وليس في القباحة والسوء والعذاب، وذلك على نحو ما فعلوا في الأبيات الآتية:

لقد علمَتْ عُلْيــا ربيعةَ أنّنا ذُراها وأنّا، حينَ تُنسَبُ، جِيدُها

عمرو بن كلثوم (ت ٣٩ ق.ه)

مِن كلِّ فاتنةٍ تَلفّتَ جِيدُهــا مرِحــاً كسالفةِ الغــزالِ الأغْيَـدِ

عنترة (ت ٢٢ ق.ه)

إلى طَفلةِ الأطرافِ زَيّنَ جِيدَها مع الحَلْيِ والطِيبِ المَجاسِدُ والخُمُرْ

أبو الطمحان القينيّ (ت ٠٣ه)

ولو تُرك الأمر للعرب وأعرافهم لاستعاضوا عن اللفظ (جِيدها) في مثل هذا الموضع بألفاظٍ مثل (عنقها) أو (رقبتها) أو (نحرها)، ولكن ليس (جيدها) على الإطلاق.

وفي هذه المفارقة ما يزيد من حجم السخرية والإشفاق، لِما سيصيب هذا العنق في الآخرة من نارٍ وعذاب، وهو المتعوّد على أطواق الذهب والتنعّم بما نالته صاحبته في هذه الحياة الدنيا من غنىً ورفاه.

إنّه تعبيرٌ جديد، وهو أيضاً غنيٌّ بالسخرية القاتلة.

٩- حبلٌ من مَسَد:

وهذا تعبيرٌ قرآنيٌّ آخر لم تعتدْه الأذن العربية لغةً، ولم تعتده بياناً، لأنه صورةٌ جديدةٌ يعرفها الخيال العربيّ لأوّل مرة: حبلٌ من شوك، أو من أيّ شيءٍ غريبٍ أو مخيفٍ كالشوك أو النار، يلتفّ حول عنق امرأةٍ كانت ناعمة العيش في الدّنيا، سليلة الحسب والنسب في قومها، فلاقت يوم الحساب عاقبة ما قدّمت يداها.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

لا بدّ من التذكير هنا بأنّ القرآن الكريم أوجد أنماطه اللغويّة الخاصّة، والمباينة للأنماط اللغويّة التقليديّة التي عرفها العرب قبل الإسلام.

وقد كان الشعراء العرب يردّدون أنماطهم أو سبائكهم التقليديّة في أشعارهم، مع تغييرٍ في بعض ألفاظها بين آنٍ وآخر، دون المساس بمواقعها ونسيجها البنائيّ والإعرابيّ.

ولكنّ لغة القرآن تحرّرت من أبنيتهم القديمة وأوجدت لنفسها أبنيتها الخاصّة، وهذا ما يجعل اكتشافنا لها وتمييزها عن لغة البشر، بل عن لغة الحديث الشريف أيضاً، سهلاً وغير محتاجٍ إلى برهان.

ويمكن أن نعثر في هذه السورة على السبائك الجديدة الأربع التالية:

١- تبّت يدا أبي لهبٍ وتبّ:

إنّ اجتماع الفعلين الماضيين هكذا، وبمعنى الدعاء، مع الفصل بينهما بفاعل الفعل الأول (يدا) الذي هو أيضاً جزءٌ من فاعل الفعل الثاني المقدّر والعائد على (أبي لهب)، يشكّل سبيكةً لغويّةً خاصّةً بالقرآن، بل هي خاصّةٌ بهذه السورة وحدها.

وقارن مثلاً بينها وبين السبائك التي استُعمل فيها الفعل (تبّ) في الشعر بعد الإسلام، رغم اعتماد بعض هذه السبائك على آيات سورة (المسَد) نفسها:

أبا لهبٍ تبّتْ يداكَ أبا لهَبْ ... وتبّتْ يداها تلكَ حمّالةَ الحطبْ

تبّاً وتَعساً لكَ يا ابنَ عُتبَهْ ... أسقِيكَ مِـن كأسِ المنايا شُربَهْ

عليّ بن أبي طالب (ت ٤٠هـ)

تبّـت يـداكَ مُفَدِّيـاً ... مـا تَـبَّ مِـن أحَـدٍ تَبابَـهْ

ومهما تَبَّ مِـن عمـلٍ وقَـولٍ ... فما عمَلُ ابنِ مَدْحِكَ للتَبابِ

تَبَّ مَن يَرتجي لَحاقَكَ في المجـ ... ـدِ وما مُرتَجيكَ في تتبيبِ

ابن الرومي (ت ٢٨٣هـ)

إنّ أيّاً من هذه السبائك الشعريّة الخمس، على تأثّرها بالصورة القرآنيّة وألفاظها وروحها، لا علاقة له بالبناء النحويّ للسبيكة القرآنيّة ولا بإيقاعها اللغويّ.

٢- ما أغنى عنه مالُه وما كَسَب:

لو قارنّا استعمال ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ في الآية مع استعمالها في الشعر العربيّ، وما تَبع هذا الاستعمال من معالم تعبيريّة، لأدركنا أنّنا أمام سبيكةٍ لغويّةٍ خاصّةٍ بالقرآن. فهي تُمازج هنا بين معنى النفي ومعنى الاستفهام، مع توجيهها في الوقت نفسه نحو المستقبل (لن يغني) كما رأينا. ثمّ إنّ الصيغة التي وردت فيها تختلف عن أيّة صيغةٍ لها في الشعر الجاهليّ. واقرأ هذا البيت لعبد مَناف الهُذَليّ (ت؟):

فما أغنى صياحُ الحيِّ عنهُ ... وولولةُ النساءِ مع الرنينِ

أرأيت كيف فَصل الفاعلُ (صياحُ الحيّ) بين الفعل (أغنى) وشبهِ الجملة الذي تعلّق به (عنه)، ثم عطف الشاعرُ على الفاعل اسماً (ولولة)، على حين تأخّر الفاعل في الآية وتقدّم عليه شبه الجملة، ثم عُطف على الفاعل مصدرٌ مؤوّل ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ -المصدر المؤوّل هو فعلٌ سبقه حرفٌ مصدريٌّ فيمكن تأويلُهما معاً بمصدرٍ عاديٍّ (كَسْبُهُ)- وليس مصدراً صريحاً على نحو ما جاء في البيت (ولولة). ولو صغنا السبيكة القرآنيّة صياغة السبيكة الشعريّة لكانت هكذا:

ما أغنى مالُه وكسْبُه عنه، أو ربما:

ما أغناه مالُه وكسبُه شيئاً.

٣- سيَصلَى ناراً ذاتَ لهَب:

هذه السبيكة مكوّنةٌ من حرف الاستقبال (السين)، والفعل المضارع المتعدّي بنفسه إلى مفعوله من غير الاستعانة بالباء -فلم يقل: (بالنار) كما رأينا- ويليه صفةٌ للمفعول مكوّنةٌ من مضافٍ شديد الخصوصيّة هو اللفظ (ذات) ومضافٍ إليه (لهب)، وهذا ما أعطى السبيكة شخصيَّتها القرآنيّة المميّزة.

٤- وامرأتُهُ حمّالةَ الحطب:

اجتمع في هذه السبيكة من العوامل اللغويّة والنحويّة ما يجعلها شديدة الخصوصيّة. فقد سدّ فيها الخبر (حمّالة) مسدّ الحال، وأُطلقت مبالغةُ اسم الفاعل على الزمن المستقبل -كما تبيّنّا- فاكتسبت بذلك جِدّتها وفَرادتها، واتّخذت بناءً إيقاعياً لغويّاً مميّزاً ووزنه: (وعامِلتُه عَمّالةَ العمل) وهو إيقاعٌ لا يتكرّر في سورةٍ أخرى من سوَر القرآن الكريم.

رابعاً: مواقع منفتحة

سنبحث هنا عن كلّ عبارةٍ أو لفظٍ يمكن أن يتّخذ أكثر من معنىً أو أكثر من وجهٍ إعرابيّ. فتعدُّد الوجوه الإعرابيّة في أيّ لفظٍ أو تعبيرٍ يتيح لنا تناولَه أو فهمَه بأكثر من وجه. وتزداد القيمة الإشعاعيّة أو الموحية لأيّ موقعٍ طرْداً مع ازدياد وجوه معانيه أو إعرابه.

وتتركّز المواقع المنفتحة للسورة فيما يلي:

١- تبّت يدا:

ممّا يؤكّد القيمة الإيحائيّة لهذا التعبير اختلافُ المفسّرين واللغويّين حول معنى الفعل (تبّت): أهو الخسران، أم الهلاك، أم اللعنة، وكذلك في الاختلاف حول معنى (يدا): هل هو حقيقيّ، فيعني يديه لا أكثر، أم هو مجازيٌّ أُطلِق فيه الجزء وأريد الكلّ، أي صاحب اليدين وهو أبو لهب.

٢- وتبّ:

رغم اختلاف المفسّرين واللغويّين في معنى الفعل (تبّت) الذي بدأت به السورة، كما رأينا، وفي معنى (يدا): هل هو حقيقيٌّ أم مجازيّ، فإنّ جملة الفعل (تبّ) جديرةٌ بأن نتوقّف عند إعرابها.

فقد تكون هنا في موقع العطف على (تبّت) أي: تبّت يداه وتبّ هو أيضاً، ولكنّها قد تكون في موقع الحال كذلك، أي: أهلكه الله، وقد تمّ إهلاكه حقاً وأصبح مفروغاً منه، فتكون الواو في الآية واواً للحال وليست للعطف.

وقد يكون تكراره لمجرّد توكيد معنى الفعل الأوّل، إذا أريد بذلك الفعلِ الكلُّ (أبو لهب) وليس يديه وحدهما.

من هذا التعدّد في احتمالات المعاني يكتسب الفعل أهميّته للتصنيف بين المواقع اللغويّة المنفتحة.

٣- ٤- ما أغنى عنه - وما كسب:

عرفنا أنّ الأداة (ما) في موضعيها من الآية يمكن أن تفسَّر أو تُعرَب بأكثر من وجه.

فقد تكون الأولى نافيةً أو استفهاميّة، أمّا الثانية فقد تكون نافيةً (أي: وما كسب شيئاً) أو استفهاميّةً (أي: وماذا كسب؟) أو موصولةً (أي: تبّ هو والذي كسبه) أو مصدريّةً (يمكن تأويلها مع ما بعدها بمصدر، أي: ما أغنى عنه مالُه ولا كسْبُهُ). ومن هذا التعدّد تتولّد القيمة الإيحائيّة أو المشعّة للعبارتين.

٥- وامرأتُه حمَّالة الحطب:

قد عرفنا المعاني الكثيرة المحتمَلة التي ذكرها اللغويّون والمفسّرون لمعنى حمل الحطب، كما عرفنا الاحتمالات المتعدّدة لإعراب اللفظ (حمّالةَ) وللزمن الذي يدلّ عليه: الحاضر أو المستقبل، وهذه العناصر مجتمعةً تشحن العبارة القرآنيّة بطاقةٍ انفتاحيّةٍ متعدّدة الأوجه.

٦- حبلٌ من مسَد:

ولا تقلّ احتمالات معاني (مَسَد) في هذه الآية عن احتمالات ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ في الآية السابقة، كما تبيّنّا من حيرة المفسّرين وهم يحاولون الإمساك بالمعنى المحدّد والنهائيّ لهذا اللفظ، وهو أمرٌ لن يتحقّق أبداً، وسيظلّ من باب "التصوير الافتراضيّ".

فقد يكون المقصود هو الحبلَ الشديد الفتل، أو قد يكون الليف، أو الشعر، أو الوبر، أو الصوف، أو الشوك، أو جلود الإبل، أو هو ﴿سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ كما في الآية (٣٢) من سورة (الحاقّة)، أو هو شيءٌ آخر غير ذلك كلّه.

إنّ القيمة الحقيقيّة لهذا التعبير مستمَدّةٌ من هذه المرونة، والقدرة على الخروج عن أيّة أُطرٍ معنويّةٍ يمكن أن يحصره فيها خيالنا الإنسانيّ المحدود.

خامساً: جوامعُ الكَلِم:

١- تبّت يدا:

لقد أخذت هذه اللعنة النموذجيّة طريقها حقّاً على أقلام الكتّاب والشعراء بعد نزول السورة، كما سبق أن رأينا في أبيات عليّ بن أبي طالبٍ ﷺ وابن الروميّ.

٢- ما أغنى عنه مالُه وما كسب:

عبارةٌ يصلح أن تطلق على كلّ ذي منصبٍ أو مالٍ أو جاهٍ، أساء لنفسه وللناس، ثم وقع في قبضة القانون، أو المرض، أو الفضيحة، أو الموت.

٣- سيَصلَى ناراً ذاتَ لهب:

عبارةٌ تحذيريّةٌ لكلّ من ارتكب، أو همّ بارتكاب كبيرةٍ، بأنّه لا بدّ أن يَلقى جزاءه في النهاية.

٤- وامرأتُه حـمّـالةَ الحطب:

يمكن أن توصف بهذه العبارة أيّة امرأةٍ سيّئةٍ صادف أنّها زوجة رجلٍ لا يقلّ عنها سوءاً.

٥- في جِيدِها حبلٌ من مسَد:

يمكن أن تطلق على امرأةٍ، وربما على رجلٍ، تزيّنا أو تنعّما بمالٍ حرام.

obeikan.com